جني مدينة التجارة والثقافة العربية في بلاد السودان الغربي

أ.م.د. زمان عبيد وناس أ.م.د. اياد عبد الحسين صيهود
د . ماجد عبد زيد أحمد

أولى الباحثون العرب اهتماما كبيرا بطرق انتشار الاسلام في افريقيا الغربية ، أو كما يسميه مؤرخوا العصور الوسطى من العرب المسلمين ببلاد السودان الغربي[1]، تاركين هوة كبيرة في دراسة التاريخ الوطني والقومي لشعوب تلك المنطقة والتي اضفت في النهاية الى ظهور ثلاثة دول كبيرة ، وُصفت بانها من أكبر امبراطوريات افريقيا جنوب الصحراء تاريخيا ، هي غانا التي انهارت سنة (632هـ/1235م) ومالي(632ـــ869هـ/1235ـــ1464م)والسونغاي(869ـــ999هـ/1464ـــ1590م) .ولفهم تطورات تاريخ تلك الشعوب ودولها التي نشأت عبر مراحلها المختلفة صار حريا بنا دراسة التاريخ المحلي لشعوب منطقة بلاد السودان الغربي ، وذلك عن طريق التعرض لتاريخ وحضارة مدنها المختلفة وتكويناتها السكانية والعرقية ، ونشاطاتها المختلفة المؤدية خاتمة الامر الى ظهور تلك الدول ، وجني واحدة من ابرز تلك المدن السودانية الغربية ، لاسيما اقتصاديا وثقافيا ، إذ تعد واحدة من أهم المدن بعد جاو[2]وتمبكتو[3]في المجالات الاقتصادية المختلفة والثقافية ، ولسبب أهميتها هذه تطرقنا لها بالبحث والدراسة ، وارتأينا ان يكون البحث موسوم بـــ: ((جني مدينة التجارة والثقافة العربية في بلاد السودان الغربي)) وتركز البحث تاريخيا أواخر عصر دولة مالي ومنثم السونغاي ، لندرة المعلومات عنها قبل هذا العصر ، ما خلا اشراتٍ اعتمدنها في ظروف نشاتها وانتشار الاسلام فيها.

أ ـــ جني نشأتها وأحوالها السياسية :

جني مدينة تنتمي كما نوهنا توا الى اقليم بلاد السودان الغربي الذي يحده من الغرب المحيط الاطلسي ، والصحراء الكبرى شماله ، وشرقه ينتهي بالحدود الشرقية لدولة نيجريا الحالية[4]، وتحديدا موقها على خط عرض ْ35 وْ13 شمالا وخط طول ْ9 شرقي كرينتش[5]، الى الجنوب الغربي من تمبكتو على بعد 4,5 كم تقريبا من الضفة اليسرى لنهر بيني احد روافد نهر النيجر[6]وعلى ظفته مينائها ، وبينها وبين تمكبكتو حوالي 600 كم .وكانت بداياتها بلدة صغيرة ، إذ نشأت في القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد على دين الوثنية ، وخطها كان على يد قبائل صنهاجة من البربر ، لتكون مركزا تجاريا وملتقى لارباب تجارة الملح والذهب[7]، وسرعان ما اجتذبت اليها قبائل الونكارا والسودانية النازحة من الجنوب الغربي للاقليم ، فساكنوا صنهاجة حتى فاقوهم عددا وصاروا هم الغالبة ، وشكلوا لهم نظاما سياسيا ، فعرفت جني بذلك تاريخيا باسم مملكة جني ولقب ملكها بلقب سلطان[8]، ثم سارعت جني في النمو وتوسعت حتى وصفها السعدي قائلا : ((وهي مدينة عظيمة ميمونة مباركة ذات سعة وبركة ورحمة))[9].ثم أُحيطت جني بسور عظيم له من الابواب ثمانية ، تحف بها الاشجار فإذا نُظر اليها من الخارج يحسبها القادم غابة لكثرة الاشجار فيها[10]، وجني مملكة مساحتها 17 الف كلم بسبعة آلاف قرية ، اما جني حاضرة المملكة نفسها فمساحتها في القرن التاسع والعاشر للهجرة/ الخامس عشر والسادس عشر للميلاد بحدود 6/2 كم^2 ، وهي في منطقة تشعب روافد نهر النيجر ، مما شكل لها حماية طبيعة من جهة ، وتسمح لمياه الفيضان ان تروي الحقول الملحقة بالبيوت بشكل منتظم[11]، وفيها تشكل جني شبه جزيرة بسبب فيضان النيجر في شهر يوليو واودكست وسبتمبر .[12]وكانت المدينة على شكل بيضوي تبعا لخط سير النهر حولها ، وقد بنيَّ سورها عند الضفة اليمنى منها ، أما أحيائها فقد كانت داخل السور ، ومركز المدينة مسجدها الكبير الذي أقامه السلطان كنبر مكان قصره ، وحوله تزاحمت الدور شرقا وغربا ، واكبر احيائها الذي فيه المسجد الكبير وقصر السلطان ، ثم حي القصبة الغربية الذي يقع الى الغرب من ميناء جني في الجنوب الشرقي منها ، وحوله قصبة جني (المركز) أقيمت ثلاثة احياء هي حي ساسي وسيمان وفارمانتالا ، أما جنوب حومة المسجد فكان هناك حيان كبيران للمزارعين ورجال القبائل السود والعبيد وهما حي كونوفيا وجوربورو ، وفي شمالها ، اي جني ، كانت تقع احياء كوراني وكونيان دبي ودمبوكال ذات البيوت الصغيرة المتصلة والازقة الضيقة ، وكانت بيوت الصناع والحرفيين وصغار التجار ، وقد أضيف اليها في عصور متأخرة حي جديد للفقهاء عُرف بحي سانكوري ، ويعتقد انه اضيف سنة 999هـ/1590م ، وقبل ذاك كان الفقهاء يقطنون في المكان الذي اقيمت فيه القصبة الغربية قرب لمسجد الكبير .[13] وجني على اية حال كانت منظمة الشوارع والاحياء وتبدو عليها النظافة وتكثر بها الساحات الخضراء ، وعلى وصف الوزان فان دورها بنيت على شكل اكواخ مملوطة حيطانها بالطين ومغطاة بالتبن[14]، وهذه طريقة البناء لدى افارقة جنوب الصحراء . أما سكان جني فمعظمهم داخل السور ، وكانوا من البربر الصنهاجيين وبعض التجار المغاربة وقبائل السونغاي السودانية ، ومن اجل ذلك لم يعرفوا في الكتابة ولغة التجارة غير العربية ، أما من وجد خارج السور من السكان فكانوا من السود الذين ينتمون الى قبائل

البهل والبوزو والبامبارا ، هذا غير قبائل الونكارا السالفت الذكر .[15]ونظام جني السياسي كما اسلفنا كان ملكيا وراثيا ، ويطلق على الحاكم لقب سلطان ، واول من ذكرته مصادر السودان المحلية من سلاطينهم كنبر الذي غير ديانة بلاده من الوثنية الى الاسلام ، وكان ذلك في مطلع القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد[16]، وذكر السعدي بان السلطان كنبر جمع علماء بلاده الذين كانوا في جني وعددهم 4200 فقيه فأسلم على ايديهم وامرهم ان يدعوا الله تعالى ، وحّول قصره ودار سلطنته الى مسجد وبنى قصره بجانبه ، وباسلام كنبر اسلم سائر أهل جني في قراهم السبعة آلاف التي تخضع لحكمه ، واوامره تنفذ اليها بنقر الطبول من قرية الى اخرى حتى يعلم اقاصيها ، ورغبة منه في نشر الاسلام ومحاربة الوثنية انشأ جيشا كبيرا وجعل على رأسه اربعة وعشرين قائدا ، وحاول ان يبني سور جني قاعدة ملكه ، لكن لم يتم الى ان جاء ابنه آدم فاتم بنائه .[17] اما عن علاقة جني السياسية بالامبراطوريات الثلاثة ، غانا ، مالي ، والسونغاي فتفصيلاتها قليلة ، بل يمكننا القول انها مبهمة الى حد ما ، وتحديدا مع غانا ، فكل ما يعرف بان جني كانت خارج نفوذ سلطان غانا ، إذ لم ترد إشارة عن اي تبعية سياسية تربط جني بغانا ، لكن مع مالي فان الاخبار ترد بان جني كانت خاضعة سياسيا لدولة مالي ، من غير ان يكون لمالي سلطان مباشر عليها ، إذ اكتفت الاخيرة بان تعلن جني من جهتها ولائها لسلطان مالي ، وان ترفع راية البلاد الموحدة ، وما عدى ذلك فالامر كله متروك لسلطان جني يفعل ما يريد شريطة ان يقدم ما يوثق تلك العلاقات ، وكانت عادات سلاطين مالي تقتضي بان يأخذوا أولاد الملوك وامراء الاقاليم التي في طاعتهم حتى يأمن الولاء لهم[18]، بقول السعدي : وعلى سياسة سلاطين مالي ان ياخذوا اولاد الملوك الذين في طاعتهم للخدمة لما يبلغوا مبلغ الاستخدام وتلك عادة جارية عن سلاطين السودان كلهم .[19]لكن الامر اختلف البتة في عصر ظهور دولة السونغاي على مسرح الاحداث السياسية في افريقيا الغربية جنوب الصحراء كامبراطورية كبرى ، أو قل بلاد السودان الغربي كما يسميه مؤرخوا العرب في العصور الوسطى ، فبعد ان استطاعت السونغاي بقيادة السن [20] علي ان تقوض سلطان مالي نهائيا سنة 869هـ/1464م اخذت انظار السن علي تتجه نحو اخضاع جميع بلاد السودان الغربي الى سلطانه المباشر [21] ، فخاض الحروب المستمرة وارغم البلدان على الخضوع بالقوة حتى انف منه الجميع فوصفه كعت لقسوته قائلا : ((الظالم الفاجر الملعون المسلط شي عال [يريد السن علي] ... الذي سارت الرفاق بقبح سيرته)) [22] ، وكذا قال : ((وكان لهذا الفاجر ... ملكا مطاعا مهيبا خافه رعيته لشره)) [23] .أما السعدي فيقول عنه : ((اما الظالم الاكبر والفاجر الاشهر سن علي ... كان ذا قوة عظيمة ومتنة جسيمة ظالما فاسقا معتديا متسلطا سفاكا للدماء ، قتل من الخلق ما لا يحصيه الا الله تعالى ، تسلط على العلماء والصالحين بالقتل والاهانة والاذلال)) [24] ، ولبطشه في رعيته وقسوته كانت جنده تلقبه بلقب ((دال)) ومعناه بلغتهم ((تعالى)) ولقب ايضا بلقب ((وانت)) ومعناه عبد المولى .[25]وتحت جبروت هذا الرجل سارت جيوش السونغاي سنة 870هـ/1465م نحو جني ففرضت عليها الحصار ، وشحن هذا السلطان الاراضين من حولها بالمقاتلة ، فدام حصاره عليها طيلة سبع سنين كانت خلالها الحرب سجال حتى جزع الناس من كلا الطرفين ، وعانت جني من نقص الزاد والمؤن ووقعت الجماعة ، ومع ذلك هم صابرون ، فأوشك السن علي على اليأس واخذ يفكر بفك الحصار وان يعود ادراجه الى قاعدة دولته لو لا أن احد كبار قادة جيش جني خان بلاده ، وبعث الى السن علي باخبار جماعته وما اصابهم من جزع ، وانهم على وشك الاستسلام ، فصبر السن علي على الحصار [26] ، يقول السعدي : حتى ((وقعت المجاعة في اهلها ونقصت قوتهم ومع ذلك يكابرون بحيث لم يعلم سن علي في احوالهم شيئا فعمل وعزم الرجوع الى سغي [السونغاي] فبعث له واحد من كبراء جيش سلطان جني ، قيل هو جدانس مان سري محمد فاخبره باسرارهم ومنعه من الرجوع حتى يرى ما يؤل اليه امرهم ، فصبر وزاد في الحصر)) [27] .وما ان جاءت سنة (878ه/1473م) حتى جرى الناس على المفاوضة بعد ان شاور سلطان جني اهل بلاده في الاستسلام حقنا للدماء ، ولذلك اتفق الطرفان المتحاربان بفض الحصار على ان تكون جني خاضعة لدولة السونغاي وان يبقى سلطانها يدير شؤنها نيابة عن السن علي ، واستمر حال جني على هذا المنوال طيلة مدة حكم السن علي المتبقية وولده الملقب بـ (شي بار) (898ـــ898هـ/1492ـــ1492م) وتغير حالها عصر اسرة الاساكي السونغانية التي حكمت بعد اسرة السن علي على اثر هيمنتها على الحكم سنة 898هـ/1492م فسيطر الاسكيا محمد الاول (898ـــــ هـــ/1492 ـــــ م) اول اساكي السونغاي على جني سيطرة مباشرة وازال عنها سلطانها وسجنه في جني ، وعين بدلا عنه حاكما لها من طرفه ، وبذلك انتهى حكم اسرة كنبر على جني ، وصار حاكم جني يعين من قبل اساكي السونغاي ، وبذا دخلت جني سنة (898هـــ/1492م) عصر الادارة المباشرة من قبل السونغاي ، وفي هذا العصر شهدت المدينة تطورا ملحوظا في المجال الاقتصادي والثقافي ، واخذت المدينة تنافس تمبكتو العاصمة الاقتصادية والثقافية لبلاد السودان الغربي ، فضلا عن جاو العاصمة السياسية لدولة السونغاي ، لكن هذه الاهمية سرعان ما فُقدت بعد الغزو المغربي لدولة السونغاي سنة 999هـــ/1590م ، فدخلت المدينة في فوضى حكم القابئل السودانية المحلية التي

اساءت لها كثيرا ، ثم لتخضع بعدها للاحتلال الفرنسي أواخر القرن التاسع عشر للميلاد ، ليندثر تاريخها العتيد ولتصبح هي اثر بعد عين .[28]

ب ـــــ جني مدينة التجارة في السودان الغربي :

ان لموقع جني على احد روافد نهر النيجر اثر بشكل واضح في تطور الوظيفة التجارية لها ، وجعلها مدينة منافسة لتمبكتو في نشاطها التجاري ، لكن لكل واحدة منها ميزنها التجارية الخاصة بها ، فتمبكتو كانت بمثابة ميناء الصحراء لبلاد السودان الغربي ، منها تنطلق بضاعات افريقيا السوداء نحو العالم عن طريق بلاد المغرب ومدن شمال افريقيا الاخرى[29] ، اما جني فكانت قاعدة للتجارة الداخلية تتجمع فيها بضاعة البلاد المحلية من ذهب ورقيق لتنقل برا ونهرا الى تمبكتو أو جاو لتأخذ طريقها نحو العالم في التجارة العالمية كما اسلفنا توا ، على ان هذا لا يمنع من ان تاخذ جني نصيبها من التبادلات التجارية الخارجية ، إذ ساعدت ظروفها الطبيعية والجغرافية ان تجري فيها الصفقات التجارية المباشرة ، لا سيما تلك التي كان يعقدها تجار ملح تغازا [30] من المغاربة مع ارباب الذهب والرقيق من تجار السودان المحليين [31] ، وهذا ما جعل السعدي يصف سوقها قائلا : ((وهي سوق عظيم من اسواق المسلمين وفيها يلتق ارباب الملح من معدن تغازا وارباب الذهب من معدن بيط [32]،وكلا المعدنين المباركين ، ما كانت مثلها في الدنيا كلها فوجد الناس بركتها في التجارة اليها وجمعوا فيها من الاموال ما لا يحصيه الا الله سبحانه)) [33] ومن هذا النص تظهر اهمية جني كونها مركزا تجاريا يربط بلاد السودان الغربي بشمال افريقيا ، كما الحال بالنسبة لتمبكتو وجاو .وقد ازدادت اهمية المدينة التجارية بعدما اصبحت خاضعة رسميا لسلطان دولة السونغاي ، ومنذ ايام السن علي الذي عمل جاهدا على تطويرها اقتصاديا والنهوض بمستوها التجاري العالمي دعما لاقتصاديات دولته ، لكنها اصبحت اكثر ازدهارا ونموا تجاريا ايام حكم الاسكيا محمد الاول الكبير سلطان السونغاي ، إذ صارت البلاد ملتقى تجار الشمال والجنوب من الافارقة ، لذا احتلت المركز الثالث من حيث الاهمية في التجارة العالمية بالنسبة لبلاد السودان بعد تمبكتو وجاو [34] ، فكان لارباب التجارة فيها ايام هذا السلطان دكاكين ومخازن لبيع البضاعة المغربية والسودانية على حد سواء ، ومحال المصوغات والمصنوعات المغاربية واقمشة اوربا ومختلف البلدان ، فتكونت فيها فئة من كبار التجار الذين وصفوا بانهم كانوا مترفي الحال .[35]وعلى اية حال ارتبطت جني تجاريا بشمال افريقيا ومنها نحو العالم بطرق عدة هي ، الطريق الاول ويربطها عن طريق تمبكتو بشمال افريقيا :

ـــــ الخط الاول ويربطها بمصر ، عن طريق تمبكتو ومنها نحو تاد مكة [36]، ثم زويلة [37] ، ثم بلاد الواحات [38] ثم يصل مصر ، والاخر ينطلق منها ، اي جني ، ثم تمبكتو ليصلها بطرابلس الغرب مارا بتاد مكة ثم بلاد الجريد [39] ففزان [40] ، ثم يصلها بطرابلس ، أما الاخر فيذهب عن طريق تمبكتو نحو تونس مارا بولاتة [41] ، ثم تغازا وتوات [42] فتونس ، اما بلاد المغرب العربي فيذهب عن طريق تمبكتو تمبكتو فتوات ثم يذهب باتجاه سجلماسة [43] [44] .

الطريق الثاني وترتبط فيه جني بالشمال الافريقي عن طريق جاو :

ـــــ والخط الاول منه تنطلق البضاعة من جني نحو جاو الى دولة كانم برنو [45] ثم بلاد الواحات فمصر ، اما الخط الثاني فينطلق عن طريق جاو ثم تاد مكة ثم زويلة ثم بلاد الواحات فمصر ، وكـــــذا منها الى تاد مكة ثم بلاد الجـــريد ثم فـــــزان فطرابلس .[46]

الطريق الثالث وتنطلق منه البضاعة من جني عن طريق نياني [47] قاعدة بلاد مالي ثم اودغست [48] ثم بلاد المغرب ، أو عن طريق نياني ثم تغازا فسجلماسة في بلاد المغرب .[49] وقد كان لنهر النيجر الاثر البارز في نقل بضاعة جني نحو تمبكتو وجاو لتسير بعدها على ظهور الابل في عمق الصحراء متجهة نحو شمال افريقيا ، لذا يعد مينائها من اهام موانئ بلاد السودان ومنذ ازمان طويلة ، كان يلتقي عنده تجار الملح والذهب والرقيق .[50]

ـــــ وأهم صادرات جني للتجارة العالمية هي :

في مقدمتها الذهب الذي يجمع من ونقارة [51] ، ثم يخزن في جني لينقل بعدها نهرا نحو تمبكتو وجاو على اثر عقد الصفقات مع تجار المغرب ، ليصل بعدها الى بلاد الشمال الافريقي لتصنع منه الحلي وتضرب العملة ، والفائض منه يصدر نحو اوربا ، وايضا الرقيق الذي يعد من التجارات الرابحة التي يجني منها المغاربة الاموال الطائلة .[52]وكذا العاج ونبات الكولا والصمغ المستخرج من اشجار الايروار الافريقية وريش النعام وبيوضه ، إذ تدخل كل هذه المواد في مختلف الصناعات الاساسية والكمالية .[53]

ـــــ أما أهم واردات جني من بلاد المغرب والشمال الافريقي هي :

الملح وهي السلعة الاهم التي تجلب اليها ولعموم بلاد السودان الغربي من تغازا في بلاد المغرب إذ تبدل بالذهب تبرا ، حتى قيل انها تبدل وزنا بوزن مع التبر ، وايضا الودع وهو اصداف مستخرجة من البحر ، وستخدمها اهل السودان عملةً في التداول اليومي مع الذهب ، وتحديدا لشراء السلع الرخيصة ، او حتى يعمل حلي

ترتديه النساء هناك ، وايضا الخرز الزجاجية وانواع الحلي المصنوعة منها او الفضة والنحاس وانواع العطور والاقمشة المختلفة اوربية ومغربية ، وانواع الصناعات المعدنية المختلفة من اسلحة وما يحتاج اليها في الحياة اليومية ، وانواع الجلود المدبوغة ، وانواع الحبوب واهمها الحنطة والشعير ، فضلا عن ما يمكن نقله من المنتجات الزراعية الميبسة وغيرها من انواع الدواب واهمها الخيول . [54]وعلى الصعيد الداخلي (التجارة المحلية) لا تختلف اهمية جني عنها في التجارة الخارجية إذ ارتبطت جني بمختلف مدن بلاد السودان ، وأخذت تورد لها انواع منتجاتها الزراعية لانها اشتهرت بكثرة ثرواتها وخصوبة ارضها ، فضلا عن الاتجار بضروريات الحياة اليومية في مدن بلاد السودان من ماكل وملبس وغيرها من وسائر الترف وما شابه ، فلذا عقدت اسواقها اليومية ، ما عدا يوم الجمعة للاتجار بين اهل المدينة انفسهم او من اتى اليها من المدن الاخرى ، اما السوق الكبيرة فكانت تعقد يوم الخميس فقط ، وغالبا ما كان يعقد فيها تجار الجملة صفقاتهم ومن ضمنها التجارة الخارجية . [55]وطريقة التعامل التجاري التي كانت سائدة فتتم بان تعقد بتبادل البضاعات عينا بعين ، اي سلعة بسلعة وهي ما يطلق عليه اقتصاديا بالمقايضة ، مثل تبادل الملح بتبر الذهب ، أو تعقد الصفقات بالنقد سواء بمثاقيل الذهب السودانية التي يطلق عليها المؤرخون العرب بالدنانير الصلع [56] ، لان لا كتابة او اشارة عليها ، او بدانير العرب القادمين من الشمال الافريقي ودراهمهم ، وكل هذا بالنسبة للتجارة الخارجية ، اما داخليا فهي لا تختلف كثيرا فأما ان تجري بطريقة المقايضة او بالشراء وفق النقد السوداني ، اي مثاقيل الذهب وبالنسبة للسلع الرخيصة فيباع ويشترى بها بالودع او بالخرز الزجاجية [57] ، فيقول القلقشندي : ((والمعاملة عندهم بالودع)) [58] ، تناقدوا باستخدام المنسوجات القطنية في المعاملات النقدية المحلية إذ صار لها قوة النقد ، ويطلق عليها اهل تلك الاقاليم الشيكات . [59]أما وحدات الوزن والكيل فيستخدم المثقال الذهب وهو يساوي 72 حبة من حبات القمح المتوسط الحجم ، إذ يشكل وزنا حوالي 4،22 غم من الذهب [60] ، ويقابل المثقال الواحد من الذهب ثلاثة الاف ودعة [61] ، والدرهم عندهم يساوي سبعة اعشار المثقال ، مثل بقية بلاد المسلمين ، اما الدينار فكان يساوي اربعين درهما ، وتزن الاوقية عندهم حوالي 27 ونصف غم . [62]والمكاييل فاعتمدوا المد ويساوي اربع امداد بجمع اليدين ، والصاع ويساوي 3 كغم ، والمرطة وتساوي اربعة اصواع اي ما يعادل 12 كغم ، وكذا القنطار الذي يقدر بحوالي 100 رطل ، ومن وحدات قياسهم للحبوب الصينية ، وكذا المودي وهو كيس من الجلد تقدر فيه الحبوب وزنا بعمل الرجل للكيس ، والتمر بالحمل والزرع قبل حصده بالقبضة والفتة وكلها اكيال تقديرية اعتمدها اهل السودان . [63]

ج ـــــ جني مدينة الثقافة الاسلامية :

اخذ تيار الثقافة العربية الاسلامية يسلك طريقه متسربا الى بلاد السودان الغربي من مراكز الثقافة العربية في بلاد المغرب وشمال افريقيا ، بمعية حركة التجارة التي ما انفك اربابها يحثون اهالي تلك الاصقاع على اعتناق الاسلام ، ولم تقف الصحراء الكبرى عائقا ابدا امام انتشار الاسلام ، ولا ان تاخذ الثقافة العربية محلها هناك ، منذ الوهلة التي وطأت فيها اقدام التجار ودعاة الاسلام اديم بلاد السودان ، فتشكلت على هذا الاساس مدن وصفت بانها مراكز نشر الاسلام والثقافة العربية ، وامتازت تلك المراكز بانها اخذت سمات مدارس الفكر ذاتها في بلاد المغرب ، فكرا ، ومنهجا ، وطريقة ، فاعتنقوا المذهب المالكي حتى انهم اخذوا طريقة المغاربة في الكتابة . [64]وجني كانت واحدة من اهام مدن السودان الغربي العلمية ، إذ سرعان ما انتشر الاسلام فيها ، وصار قصر سلطانها بعد اسلامه مسجدا لم يلبث ان تحول الى جامعة علمية يقصدها طلبة العلم واساتذته من محتلف البلدان ، يتلقون فيها فنون المعرفة ومختلف العلوم الدينية ، يقول السعدي : ((وقد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكانا من العلماء والصالحين من غير أهله من قبائل شتى وبلاد شتى)) [65]، فبلغ عددهم مطلع القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد 4200 عالم وفقيه وخطيب ومتحدث بالغة العربية[66] ، يعلمون الناس الدين واصوله واحكامه ، وبلغة المدينة شأوها العلمي والثاقفي زمن دولة السونغاي ، لا سيما عصر الاساكي الذين اهتموا بانواع المعرفة التي توصل اليها العالم الاسلامي انذاك ، وبثوه في بلدانهم سواء عن طريق شراء الكتب وجلبها او جذب اكابر فقهاء بلاد المغرب اليهم ، او ارسال البعاث الى مدارس العلم في بلاد المغرب ، ومنها الزيتون لتحصيل العلم ، فراحت البلاد تشهد انتاجا علميا والفت العديد من الكتب والشروح ، في الفقه والمنطق والعروض والنحو والتاريخ ، على النمط الذي كان عند العرب في المشرق والمغرب على السواء . [67]وعلى الرغم من وصف السعدي وغيره لجني بانها مدينة علم ومنارة ثقافة عالية في بلاد السودان ، إلا انهم لم يفصلوا بتاريخ هذه المدينة العلمي بل انفرد السعدي بذكر قائمة لعدد من الفقهاء والعلماء الذين اشتغلوا وعقدوا مجالس الدرس فيها، وبحدود اطلاعنا على مصادر السودانيين المحلية فنحن مرغمين على ذكر قائمة الاسماء وتخصص كل عالم بعلمه الذي اتقنه بحدود المعلومات المتوافرة ، ومن هؤلاء الذين ذاع صيتهم في الاوساط العلمية الفقيه مورمغ كنكي الذي تلقى تعليمه على اساطين فقهاء بلاد المغرب ، وقعد في جني يدرس الناس ، فاسرع اليه طلبة العلم ياخذون عليه ،

وكانت طريقته في القاء العلم تقتضي بان يجلس في حلقته وحوله تلاميذه يعرضون عليه مسائلهم العلمية فيناقشهم مسالة مسئلة ، ويبدأ هذا الفقيه درسه ليلا ويستمر حتى مطلع الفجر ، ثم يعود بعد صلاة الفجر فيجلس لدرسه الى وقت الزوال تقريبا ، ثم يعود لطلبته مرة اخرى عصرا ، وهذا يوميا ، وكان لدواعي الطقس وارتفاع درجات الحرارة في البلاد الافريقية جنوب الصحراء ان اجبرت ارباب العلم وتلاميذهم ان يقعدوا للدرس ليلا ، وان كان في الرواية ما يمكن ان نعتقد به انه مبالغ فيه الى حد ما من حيث طول مدة القعود للدرس ليلا ، وعلى اية حال فهذا منهجا تعليما سائدا في تلك البلاد كما أسلفنا توا ومنهم الفقيه العالم فودي ابن الفقيه محمد ساقو الونكري الذي قلده الاسكيا محمد الاول قضاء جني ، فكان اول قاض فيها يفصل بين الناس بالشرع ، وقبل ذلك كان لا يفصل بين الناس الا الخطيب بالصلح ، وهو شأن السودان والبيضان في تلك البلدان ، ومنهم القاضي العباس كب من اهل جني ، وكان عالما ورعا وفقيها فاضلا خيرا سخيا ، وكذا القاضي محمود بن ابي بكر بغيغ وولديه العالمين الفاضلين ، محمد بغيغ واحمد بغيغ ، واحمد الاخير هذا كان قد تولى قضاء جني بعد وفاة القاضي العباس كب على عهد الاسكيا اسحاق بن محمد الكبير (946ـــ956ه /1539ـــ 1549) .[68]ومنهم القاضي محمد ترف بن القاضي عمر ترف ، وهذا كان في بادىء امره خطيبا ثم جُعل امام الجامع الكبير في جني ثم وليَّ القضاء ، ومنهم الخطيب ماقا ويحيى ، وكذا القاضي مودب بكر توري ، والقاضي محمد بنب كنات ، وكان هذا عالما زاهدا تولى القضاء بعد وفاة القاضي بكر توري .[69]وقد كان لكل هؤلاء دورهم البارز في نشر الاسلام بين قبائل السودان وبث روح الثقافة العربية ، إذ كانت جميع انواع المعرف تدرس باللغة العربية وهي لغة الكتابة الرسمية ، وجميع هؤلاء ومن تصدى لمجالس العلم من غيرهم سواء اكانت في مراحلها المتقدمة أم الوسطى أم الكتاب فقد نالوا احترام السلاطين والاهالي من مختلف فئات المجتمع على حد سواء ، وبالغ الاساكي بالاغداق عليهم حتى كانوا مقدمين لديهم .[70]وبفضل هؤلاء العلماء صارت جني مركزا مهما في الثقافة السودانية التي اتسمت بانها ثقافة اسلامية عربية ذات طابع سوداني ، وبلغت فيهم العلوم مبلغا رفيع المستوى اضفت على جني الاهمية العلمية تاريخيا .وخلاصة القول يمكننا ان نجزم قائلين ان بفضل موقع جني المتوسط مدن حافات الصحراء من جهة ، مثل جاو تمبكتو ونياني وكومبي صالح ، ومناطق جنوب الاقليم الغنية بالذهب والمواد الخام من جهة اخرى صارت المدينة مركز تجاريا هاما ومعبرا ضروريا لبضاعات السودان وهذا ما جعل منها بالضرورة منطقة جذب سكانية لقبائل الطوارق والسودان وجماعات مغاربية سعت للتكسب من التجارة أو ان تعمل في خدمة التجار واكابر الناس فيها ، وهذا بدوره ما دعا بان تكون جني مدينة علمية تحف بالفقهاء ، ولان المدينة منطقة امتزاج الثقافات العربية الاسلامية بالافريقية السودانية سعا العديد من هؤلاء الفقهاء السالفي الذكر اليها من بلاد شتى راغبين في نشر الاسلام بين القبائل الوثية فيها والقريبة منها وهذا ما جعلها مدينة علمية كما قلنا اذ اصبحت تضاهي مدن المغرب بمستواها العلمي ومدن السودان الشهيرة مثل جاو وتمبكتو .

ـــــ الهوامـــش :

ـ ينظر على سبيل المثال لا الحصر الادريسي ، ابو عبد الله محمد بن محمد (ت560هـ) ، صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ماخوذة من كتاب نزهة المشتاق ، مطبعة بريل (ليدن:1968م) ص 4 ؛ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الله (ت723هـ) ، نهاية الارب في فنون الادب ، مطابع كوستاتوماس (القاهرة:1949م) ج15 ، ص287 ؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ) ، العبر وديوان المبتدء والخبر، تحقيق خليل شحاذة زكار ، دار الفكر (بيروت:1988م) ج6 ، ص 294.

2ـ جاو : مدينة جاو عاصمة دولة السونغاي وتقع ضمن اقليم السودان الغربي على ثنية نهر النيجر الشرقية وتحد الاطراف الجنوبية للصحراء الكبرى من شمالها والى الغرب منها مدينة تمبكتو الشهيرة وتبعد عنها بحو 440 كم . ينظر ابن سعيد ، ابي الحسن علي بن موسى المغربي (ت685هـ) ،الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت:1970م)ص 95 ؛ القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي (ت821هـ) ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ، تحقيق محمد حسن ، دار الكتب العالمية (بيروت:1987م) ج5 ، ص26 ؛ وناس ، زمان عبيد ، التاريخ الحضاري لمدينة جاو ، دار الصادق (الحلة:2006م) ص 18 – 22 .

3ـ تمبكتو : من اشهر مدن بلاد السودان الغربي وقاعدته الاقتصادية تقع على ثنية نهر النيجر عند دوران قوسه الشمالي ، شمال دولة مالي الحالية . ينظر وناس ، تمبكتو واثرها الحضاري في العصور الاسلامية المتاخرة ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية التربية الجامعة المستنصرية ، سنة 2000م ،ص 15 – 16 .

4ـ زكي ، عبد الرحمن ، الدول الاسلامية السودانية بافريقيا الغربية ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة: 1961م) ص7 .

5 – الفيتوري ، عطية مخزوم ، دراسات في تاريخ شرق افريقا وجنوب الصحراء ، منشورات جامعة قان يونس (بنغازي:1998م) ص288 .

6ـ السعدي ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت1066هـ) ، تاريخ السودان ، نشر هوداس (باريس:1964م) ص12 .

7 – م . ن ، ص 12 ؛ الغربي ، محمد احمد ، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي (بغداد:1982م) ص580 .

8 – الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 580 .

9 ـ السعدي ، تاريخ السودان ، ص12 .
10 ـ م . ن ، ص12 .
11 ـ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 579 ؛ زكي ، الدول الاسلامية ، ص 7 .
12 ـ الوزان ، الحسن بن محمد (ت959هـ) ، وصف افريقيا ، دار الغرب الاسلامي (بيروت:1983م) ج2 ، ص163 .
13 ـ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 581 .
14ـ وصف افريقيا ، ج2 ، ص 163 .
15 ـ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 581 .
16ـ السعدي ، تاريخ السودان ، ص 12 ؛ شلبي، احمد ، الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقيا منذ دخلها الاسلام حتى الان ، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، مطبعة النهضة المصرية (القاهرة:1972م) ج6 ، ص200 .
17ـ م . ن ، ص 12 .
18ـ ينظر م . ن ، ص12 .
19ـ م . ن ، ص6 .
20ـ السن : لقب سلطاني اتخذه السن علي من الاسرة الحاكمة الاولى لدولة السونغاي ، ويعد المؤسس الحقيق لها كامبراطورية عظمى ، ومعنى اللقب في لغة السونغاي المحرر . ينظر التنبكتي ، نيل الابتهاج في تطريز الدباج ، تحقيق ناطق مطلوب ، ص 23 .
21ـ كعت ، محمود بن المتوكل كعت الكرمني التمبكتي (ت10هـ/16م)، التاريخ الفتاش في اخبار البلدان واكابر الناس ،نشر هوداس (باريس:1964م) ص 44 ؛ شلبي ، الاسلام والدول الاسلامية ، ج6 ، ص 200 ؛ وناس ، زمان عبيد، التاريخ الحضاري لمدينة جاو ، ص66 ؛ زكي ، الاسلام والمسلمون في غرب افريقيا ، مطبعة يوسف (القاهرة 1965م)ج2 ، ص52 ؛ حسن ،حسن ابراهيم ، انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى (القاهرة:1957م) ص67 .
22ـ م . ن ، ص43 .
23ـ م . ن ، ص48 .
24ـ تاريخ السودان ، ص64 .
25ـ كعت ، التاريخ الفتاش ، 44 .
26 ـ السعدي ، تاريخ السودان ، ص 12 .
27 ـ م . ن ، ص12 .
28 ـ ينظر زبادية ، عبد القادر ، مملكة سنغاي في عهد الاسقيين ،الشركة الوطنية للنشر (الجزائر :د/ت) ص28 ؛ شلبي ، الاسلام والدول الاسلامية ، ج6 ، ص 201 ؛ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 580ـ 581 .
29 ـ شلبي ، الاسلام والدول الاسلامية ، ج6 ، ص195ـ197 .
30 ـ تغازا : من مدن بلاد المغرب العربي وموقعها تحديدا جنوب المغرب الاقصى على الطريق الرئيسي الذي يربط تمبكتو بالمغرب ، وهي قليلة السكان ذات اهمية تجارية كبرى بوصفها مركز انتاج الملح الذي يستبدل بالذهب مع اهالي السودان . ينظر ابن بطوطة ، ابو عبد الله اللواتي (ت779هـ) ، تحفة النظار في غرائب الامصار ، تحقيق توم بريمر ، المطبعة الوطنية (باريس:1927م) ج4، ص377ـ378 ؛ الدالي ، الهادي المبروك ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا فيما وراء الصحراء ، الدار المصرية اللبنانية (القاهرة:1999م) ص 308 .
31 ـ السعدي ، تاريخ السودان ، ص11 ؛ الوزان ، وصف افريقيا ، ج2 ، ص 163 ؛ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 583 .
32 ـ بيط : تقع بيط جنوب بلاد السودان الغربي عند مصب نهر النيجر وكانت من اكبر مراكز انتاج الذهب في افريقيا ، يستخرجه اهالي المنطقة فيبادلوه بما يحتاجون في جني وتمبكتو . ينطر م . ن ، ص 11 ـ12 .
33ـ م . ن ، ص 11ـ12 .
34 ـالوزان ، وصف افريقيا ، ج2 ، ص 163 ؛ زبادية ، مملكة سنغاي ، ص 196 ؛ الدالي ، ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا فيما وراء الصحراء ، ص 307 .
35 ـ زبادية ، مملكة سنغاي ، ص196 ؛ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 583 .
36 ـ تاد مكة : مدينة كبيرة الى الجنوب من مدينة تيركي في الصحراء ، شمال شرق تمبكتو ن بينها وبين مدينة غانا حوالي ستة ايام ، وتاد مكة تقع بين شعاب وجبال كثيرة الشبه بمكة المكرمة لذا سميت بتاد مكة ، معناها مكة الجديدة باللغة الامازيغية ، واهلها مسلمون واكثر نشاطهم الرعي . مجهول ، الاستبصار ، ص223 .
37 ـ زويلة : مدينة مهمة تقع وسط الصحراء بالقرب من اجدابية من اول حدود بلاد السودان ، وظهورها كمركز تجاري كان في بداية القرن 4 للهجرة . مجهول ، الاستبصار في عجائب الامصار ، نشر سعد زغلول ، دار النشر المغربية (الدار البيضاء :1985م) ص 146 ؛ الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ، ص 296 ـ 297 .
38 ـ بلاد الواحات : وهي بلاد كثيرة في الصحراء ما بين بلاد افريقية ومصر ، والحياة قليلة فيها والدخول اليها من اورجلة وزلي من صحراء طرابلس . م . ن ، ص147 .
39 ـ بلاد الجريد : سميت بلاد الجريد لكثرة النخيل فيها ، وهي مدن كثيرة واقطار واسعة وعمائر متصلة كثيرة الخصب والتمر والزيتون ، وهي اخر بلاد افريقية على طرف الصحراء . ينظر م . ن ، ص150 .
40 ـ فزان : مدينة تجارية مهمة تقع على طريق القوافل التي تربطها ببلاد السودان في صحراء ليبيا على تخوم اغادس التي تحد مصر . الوزان ، وصف افريقيا ، ج2 ، ص146 ـ 147 .

41ـ ولاتة : مدينة تقع الى الغرب من تمبكتو وهي في طرف الصحراء الكبرى ، واليوم هي من مدن جمهورية موريتانيا ، كانت في العصور الوسطى من اهم مدن الصحراء التجارية . المقري ، احمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق احسان عباس (بيروت:1988م) ج5،ص205 ؛ السعدي ، تاريخ السودان ، ص21 .
42 ـ توات :مدينة في المغرب تبعد عن سجلماسة بحدود 165كم وهي من المركز التجارية المهمة .
عوض الله ، الشيخ الامين ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي واثرها الحضاري حتى القرن 16 ، ندوة تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م (بغداد:1984م)ص80 .
43 ـ سجلماسة : مدينة مهمة في بلاد المغرب العربي ذات اهمية اتصادية تع الان في الحدود الجنوبية الشرقية للمملكة المغربية . الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ، ص301ـ 302 .
44ـ شلبي ، الاسلام والدول الاسلامية ، ج6 ، ص 197 ؛ الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ، ص 307 ؛ وناس ، تمبكتو واثرها لحضاري في العصور الاسلامية المتاخرة ،، ص 77ـ79 .
45 ـ كانم برنو : دولة كانم برنو تقع ضمن اقليم بلاد السودان الاوسط وتحديدا شمال شرق بحيرة تشاد من حدود السونغاي الى دار فور ، انتشر الاسلام فيها منذ وقت مبكر . ينظر محمد ، شوكت عارف ، دولة كانم الاسلامية دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية ، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل سنة 1996م ، ص 11 وما بعدها .
46 ـ وناس ، التاريخ الحضاري لمدينة جاو ، ص 137 ــ 141 ؛ الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ، ص 306ـ 307 ؛ 312 ـ317 .
47ـ نياني : كانت عاصمة دولة مالي في بلاد السودان الغربي وتقع اهميتها التجارية من كونها قاعدة بلاد مالي . الشيخ الامين ، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي واثرها الحضاري حتى القرن 16 ، ص82 .
48 ـ اودغست : مدينة بين صحراء لمتونة وبلاد السودان بينها وبين سجلماسة نحو 1500كم وهي من اهم مركز الجنوب التجارية التي تربط بلاد السودان بالمغرب العربي .
وناس ، تمبكتو واثرها الحضاري ، ص 90 .
49ـ الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ، ص 315 ؛ العراقي ، سيد احمد ، تجارة القوافل بين الشمال وغرب افريقيا واثرها الحضاري ، ندوة تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م (بغداد:1984م)151 .
50 ـ السعدي ، تاريخ السودان ، ص 11 .
51ـ ونقارة : ونقارة من ارض السودان وهي بلاد التبر المشهورة ، نهر النيجر يحيط بها من كل جهة سائر ايام السنة جاعلا منها جزيرة وسط البلاد . ينظر الادريسي ، صفة المغرب وارض السودان ، ص8 .
52ـ الوزان ، وصف افريقيا ، ج2 ، ص163 .
53ـ الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ، ص 318 ـ323 ؛ عوض الله ، تجارة القوافل بين المغرب وبلاد السودان ، ص 89 ، ولد حامد ، المختار ، الجغرافيا ، دار المغرب الاسلامي (بيروت:1994م) ص 13 ، زبال ، حياة جديدة للطوارق ، مجلة العربي ، العدد 218 (الكويت:1977م) ص98 .
54 ـ الوزان ، وصف افريقيا ، ج2 ، ص163 ؛ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 448 ـ450 ؛ الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ، ص 323 ـ 334 .
55ـ م . ن ، ج2 ، ص163 ؛ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص 455 ؛ عوض الله ، تجارة القوافل ، ص90 .
56ـ البكري ، ابو عبيد ، المسالك والممالك ، تقديم ادريان فان واندري فيري ، الدار العربية للكتاب (تونس: 1992م) ص 181 ؛ مجهول ، الاستبصار ، ص 223 .
57ـ زبادية ، مملكة سنغاي ، ص 207 ـ 209 ؛ الدالي ، التاريخ السياسي والاقتصادي لافريقيا ، ص 339ـ 343 .
58ـ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج5 ، ص 292 .
59 ـ مجهول ، الاستبصار ، ص 127 .
60ـ الغربي ، بداية الحكم المغربي ، ص434 .
61 ـ الوزان ، وصف افريقيا ، ص 200 ؛ كعت ، التاريخ الفتاش ، ص 183 .
62 ـ م . ن ، ص 200 .
63 ـ كعت ، التاريخ الفتاش ، ص 56 ، 68 ، 94 ، 96 ؛ زبادية ، مملكة السنغاي ، ص 199 .
64 ـ الفيتوري ، دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء ، ص324ـ 325 .
65ـ تاريخ السودان ، ص 16 .
66ـ م . ن ، ص12 .
67 ـ زبادية ، مملكة الزنغاي ، ص 154 ؛ الفيتوري ، دراسات في تاريخ شرق افريقيا ، 325 .
68 ـ السعدي ، تاريخ السودان ، ص 16ـ 17 .
69 ـ ينظر م . ن ، ص 16 ـ 19 .
70ـ زبادية ، مملكة سنغاي ، ص 154 ـ155 .

خارطة تمثل موقع جني في بلاد السودان الغربي واهم الخطوط التجارية التي تربطها بالعالم الخارجي